زبيجنيوي بريزينسكي، «نظرة إستراتيجية: أمريكا وأزمة القوة العالمية»

نيويورك، الولايات المتحدة، 2012.

إعداد: نانسي إدوارد - باحثة ماجستير في العلوم السياسية، جامعة القاهرة

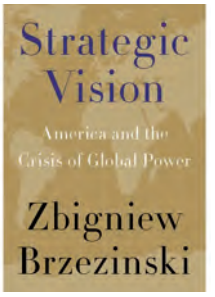

"عالم ما بعد الغرب"، "نظام بلا نظام"، "عالم متعدد الأقطاب"، وغيرها من المسميات التي أطلقها المنظرون والمتابعون والدارسون للعلاقات الدولية في محاولتهم لوصف نظرتهم تجاه النظام الدولي، ولعل كتاب بريزينسكي يعد من الإسهامات الأدبية الصادرة التي لا تتوقف في الحديث عن حالة العالم في فترة ما بعد الحرب الباردة، كما أن هذا الكتاب يسير مع الاتجاه السائد في الحديث عن التغيير الحاصل في النظام الدولي الذي لم يعرف له طبيعة بعد.

الكتاب يتميز بأنه بمثابة مرجع مهمّ للسياسة الخارجية للولايات المتحدة، التي لم يعد ينظر إليها على أساس أنها القوة العظمى، بل أضحت تواجه عدة تحديات حالية ومستقبلية تؤثر في مكانتها الدولية، ومن ثم ستؤثر في موازين القوة الدولية، استراتيجيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، علاوة على أن الكتاب هو إسهام للأطروحات والمناقشات التي تدور داخل أروقة المؤسسات المعنية بالسياسة الخارجية في الولايات المتحدة، فهو إسهام ثمين ومهمّ لصناع القرار، باعتبار تحريره من قبل الذين خدموا في العمل الحكومي الأمريكي، بالإضافة إلى تداخل الاعتبارات الإستراتيجية ثم الاقتصادية والاجتماعية والبيئة الثقافية، مع ذكر بعض الفترات التاريخية، بحيث يساعد القارئ على تجميع الصورة الكاملة والواضحة عما يحدث وسيحدث في السياسات العالمية ويتيح له تكوين صورة مستقبلية عن حالة النظام الدولي.

وفي مقدمته أقر الكاتب بأن هناك تغييرًا جذريًّا حاصلًا في ميزان القوة الدولية الحاكم في العلاقات الدولية، فلم تعد هناك قوة دولية عظمى تكمن في قبضتها ميزان القوة العالمية، بل إن القوة العالمية صارت تتفتت وتتحول الهيمنة الدولية من أحادية قطبية إلى كيانات ووحدات أصبحت طرفًا في تغيير مسار العلاقات الدولية، وكان ذلك من شأنه إيجاد علاقات دولية هشة، تؤثر في الاستقرار الجيواستراتيجي للمناطق المختلفة في العالم. لكن في النهاية، ما يصر عليه الكاتب هو أنَّ الحديث الذي يدور حول تراجع الغرب وانحسار الولايات المتحدة باعتبارها القطب الوحيد الذي ظل يحكم العالم ويقوده في الفترة ما بعد الحرب الباردة في النهاية مجرد خيار وليس فرضًا أو أمرًا واقعًا.

ينقسم الكتاب إلى أربعة فصول، كلها تعكس جدله وتأكيده أن الولايات المتحدة ستظل بذات المكانة والدور المحوري والمهم الذي تلعبه، مثلما أكّد أوباما عدة مرات في خطاباته بأن الولايات المتحدة هي الدولة التي لا يمكن الاستغناء عنها (Indispensable

Nation). والاقتناع الرئيس الذي نراه ضمنيًّا وصراحة في الكتاب هو أن الولايات المتحدة لن تتقهقر ولن تتراجع، وفي حال حدوث ذلك، ستكون الفوضى عارمة في المجتمع الدولي، فالعالم في حاجة إلى أمريكا باعتبارها قوة عسكرية: ثابتة اقتصاديًّا، منتشرة اجتماعيًّا، مسؤولة استراتيجيًّا، مسؤولة دوليًّا وتاريخيًّا، وتحظى بشعبية مقبولة في ذات الوقت.

في الفصل الأول بعنوان «الغرب المتراجع» (The Receding West)، يُلاحظ مدى اهتمام الكاتب في الرجوع إلى تاريخ الحضارة الغربية ونشأتها، وذروتها في قيادة العالم، مثل الإمبراطوريات التي نشأت قديمًا قبل الفترة الإمبريالية، ثم الحقبة الاستعمارية، عندما اندفعت إنجلترا وفرنسا والبرتغال وأسبانيا نحو استعمار مختلف مناطق العالم في إفريقيا والعالم العربي وأمريكا الشمالية والجنوبية، مرورًا بالحربين العالميتين: الأولى والثانية، ثم الحرب الباردة والمنافسة بين القطبين الدوليين، ثم انتهاء الحرب البادرة وبروز نظام أحادي القطب بقيادة الولايات المتحدة كقوة عظمى ومهيمنة على العالم إستراتيجيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وفكريًّا. لكن سرعان ما تغيرت حالة الأحادية القطبية، لتواجه منافسة شرسة من بعض القوى الصاعدة، وتحدث الكاتب عن الصين والهند واليابان والبرازيل، باعتبارها دولًا تسعى إلى أن تحل محل الولايات المتحدة، مستغلة الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالغرب منذ عام 2008.

ومن الحديث عن التراجع الغربي إلى الحديث عن أسباب ذلك، وهي الظاهرة التي أطلق عليها بريزنسكي «الصحوة السياسية العالمية» لدى بعض الأطراف – من بينها الفرد– التي دخلت في اللعبة السياسية العالمية، وهي من تداعيات ظاهرة العولمة التي أصبحت تجمع شعوب العالم في قرية صغيرة واحدة، والتطور التكنولوجي الحاصل في الاتصالات والمعلومات مما أدى إلى غياب السلبية تجاه المستجدات الدولية. إن هذه الظاهرة بطبيعتها أدت إلى عدة نتائج وعواقب، من بينها أنها ألقت الضوء على بُعد مهمٍّ كان مهمشًا في المنافسة الدولية، وهو «المنهاجية في المنافسة الدولية»، بمعنى أن المنافسة القائمة في المجتمع الدولي لم تعد مقصورة ومحدودة على الدول، بل ظهرت مؤخرًا دراسات تتناول المنافسة التي تقوم بين الشعوب ذاتها.

وفي الفصل الثاني «الحلم الأمريكي المتراجع»، بدأ بريزنسكي يتحدث عن الحلم الأمريكي، الذي لا يوجد فرد في العالم لا يعرف أو لا يسمع عنه. لكن هذا الحلم الذي يتشوق إليه العديد من الطموحين أو الراغبين في حياة أفضل بدأ يتلاشى، ولم تعد الولايات المتحدة الأمل الذي يبتغيه الكثيرون بعد التحديات التي أصبحت تواجهها في القرن الحادي والعشرين. وقد نوه الكاتب إلى أن هناك ستة تحديات تواجه الولايات المتحدة وهي: التدين الداخلي المتزايد، النظام المالي الطامع، عدم المساواة في الأجور، البنية الأساسية المتآكلة، شعب لا يعرف الكثير عن الخارج وعما يدور، وأخيرًا السياسية الحزبية الجامدة. لكن على الوجه الآخر، أشار بريزنسكي إلى أن هناك بعض المميزات التي يمكن أن تستغلها الولايات المتحدة في مواجهة التحديات العالمية، وهي المميزات التي ستمكنها من إعادة مركزة موقعها العالمي كقوة عظمى، على سبيل المثال: الاقتصاد الأمريكي القوي، والأساس الديموغرافي المتماسك، وغنى الولايات المتحدة بالموارد الطبيعية، وتمسكها بالقيم المتعلقة بحقوق الإنسان.

في الفصل في الثالث «العالم ما بعد أمريكا في 2025: ليس صينيًّا بل فوضوي»، يتحدث الكاتب عن التداعيات والآثار الناجمة عن التصور المتعلق بتراجع الولايات المتحدة، وغياب قيادة دولية للنظام الدولي، ويؤكد أن العالم سيمرّ بحالة من عدم الاستقرار،

وستكون الدول الأكثر عرضة للاضطرابات هي الدول التي تعتمد على وجود أمريكي في منطقتها، ومن بين تلك الدول جورجيا، تايوان، كوريا الجنوبية، أوكرانيا، أفغانستان، باكستان، إسرائيل والشرق الأوسط الكبير. كما ناقش بشكل محدد ودقيق التداعيات والآثار الناجمة عن انهيار الولايات المتحدة، ومظاهر الفوضى التي ستعمُّ المجتمع الدولي من نشوب صراعات إقليمية، خاصة في منطقة آسيا. كما أن الاستنتاجات التي تحدث عنها بريزنسكي هنا أن النظام الدولي بعد الولايات المتحدة لن تكون له القدرة على احتواء النزاعات والصراعات الإقليمية والدولية ولن يتمكن من الحيلولة دون الاختلال في موازين القوى الدولية، حتى الصين التي يعتبر الكثيرون أنها ستكون وريثة الولايات المتحدة في قيادة العالم، لن تكون قوة عظمى مثل الولايات المتحدة، على الرغم من الطفرة الاقتصادية التي حققتها.

وفي هذا الصدد أيضًا، تناول بيرزنسكي الأبعاد البيئية والأمنية في عالم ما بعد الولايات المتحدة، وقسم الاهتمامات العالمية المشتركة (Global Commons) إلى مخاوف أمنية، تنحصر في انتشار الأسلحة النووية والتكنولوجيا العسكرية في البحار والفضاء، والمخاوف البيئية من ظاهرة الاحتباس الحراري وتغيير الخريطة والبيئة الجغرافية ونقص موارد المياه. لذلك لا مفر من التعاون والاشتراك في وضع سياسات لمواجهة التحديات المستقبلية بين الغرب بقيادة الولايات المتحدة وباقي مناطق العالم سواء انهارت الولايات المتحدة أم بقيت قوة عظمى.

الفصل الأخير من الكتاب تحت عنوان «ما بعد 2025: توازن جيوسياسي جديد» خصصه الكاتب للحديث عن التصور المستقبلي للعالم ما بعد عام 2025، وهو العام الذي يتوقع الكثيرون أن تكون الولايات المتحدة قد انهارت فيه وتكون الصين قائدة للعالم، لكن كاتبنا هنا يختلف عن غيره من المفكرين، حيث يرى أن انهيار وتراجع الولايات المتحدة خيار وليس فرضًا، وأن قوة الولايات المتحدة في نهاية الأمر تتوقف على الشعب الأمريكي الذي له الحرية في اختيار من الذين يصنعون ويرسمون السياسات الأمريكية الداخلية والخارجية، وأشار الكاتب إلى أن الولايات المتحدة لن تتمكن من تعزيز مكانتها الدولية كقوة عظمى بدون اقتصاد قوي وبنَّاء، مع وجود الدافع الأساسي للنظام الأمريكي وهو الديمقراطية.

ومن ثَمَّ على صناع السياسة الأمريكية، الخارجية والداخلية، إدراك التغييرات الاستراتيجية الجديدة التي ستحل بعام 2025. ثم يتحدث الكاتب تفصيلًا عن أهمية وجود غرب فعال وقوي كفاعل في العلاقات الدولية، وهو الأمر الذي يستدعي تعاون الولايات المتحدة مع حليفها التقليدي الأوروبي، وفي نفس الوقت تحقيق سياسة متوازنة في العلاقات مع الشرق.

خلاصة القول،هذا الكتاب يمزج بين التاريخ والجغرافيا والسياسة والأبعاد الجيوسياسية من أجل إعطاء تصور يشمل الاعتبارات والمتغيرات العصرية كافة، كما أنه يحوي إجابات عن التساؤلات وحلًا للغموض الذي يحاول علماء السياسة والمنظِّرون معرفته من أجل اختبار مقولة سقوط وانهيار الولايات المتحدة. ويمكن تصنيف الكاتب بأنه ممن يعتقدون أن العالم لن يستطيع أن يصمد بدون الولايات المتحدة، وأن الولايات المتحدة لن تستطيع أن تصمد دون رؤية ونظرة إستراتيجية شاملة، تحث على التقارب بين الحلفاء التقليدين في الغرب، وتحقيق سياسة متوازنة مع الشرق، دون الإفراط في تركيز التوجه على الشرق، ويبقى الأمر في النهاية خاضعًا لما سيأتي به المستقبل في عالم متقلب.